الأسطورة

خبيب بن عدي

رضي الله عنه

يحيا الصمود، ويسقط الطغاة

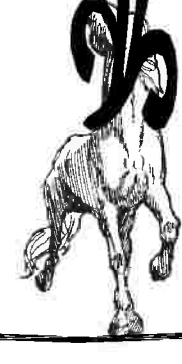

« ألم نصل بعد ؟».

نطق بها وقد بدا عليه الإرهاق، عاصم بن ثابت رئيس البعثة التى بعثها رسول الله ﷺ إلى قبيلة (عضل والقارة) في الجزيرة العربية، بناء على طلب وفد منهم ذهب إلى المدينة في السنة الرابعة للهجرة، بهدف أن يسمح الرسول ﷺ لهم باصطحاب بعثة إلى قبيلتهم لتقرئهم القرآن وتشرح لهم تعاليم الإسلام.

ووافق الرسول ﷺ على الفور مرحبا، واختار عشرة من خيرة الصحابة، وأخبرهم بطبيعة مهمتهم، ودعا لهم بالتوفيق والنجاح قبل أن ينطلقوا في طريقهم.

وما أن وصلوا إلى بئر تسمى (الرجيع) بناحية الحجاز بين منطقتي (رابغ) و (جدة)، حتى قال أحدهم وهو يبتسم ابتسامة لم يفهم معناها عاصم:

- لا تقلقوا..نحن قد اقتربنا، وستجدون لدينا من الترحيب ما يخفف عنكم عناء الطريق.

صرف عاصم عينيه عن الرجل واتجه ببصره إلى الطريق أمامه وهو يقول:

- لا..لا شيء. . لكننا كنا نريد أن.....

تسمرت قدما عاصم بن ثابت فجأة، وصاح في قوة وهو يشير لأصحابه:

- توقفوا..توقفوا يا إخوان.

كان عاصم بن ثابت قد ظهر أمامه فجأة مائة من الرماة يصوبون سهامهم إلى الصحابة في انتظار الأمر..

عندها التفت عاصم إلى الرجل في حدة، وقبل أن ينطق ببنت شفة، لاحقه الرجل في سخرية قائلا :

- ألم أقل لكم، إنكم ستجدون لدينا كل ترحيب ؟

وفي لمح البصر.. كان عاصم وإخوانه التسعة يسابقون الريح، حتى استطاعوا أن يفلتوا من الرماة، وما أن وجدوا جبلا حتى صعدوا فوق قمته وانتظروا يترقبون ما يحدث.

إلا أن الرماة ظلوا في بحثهم، حتى لمحهم أحدهم، وهنا تجمع الرماة تحت سفح الجبل وحاصروهم حصارا شديدا.

وفي نبرة خبث تعود عليها، نادى قائدهم من تحت الجبل وهو يقول:

- انزلوا ولكم الأمان، لن نمسكم بسوء.

ونظر الجميع إلى عاصم بن ثابت في انتظار قراره، إلا أنه نظر إليهم في إصرار قائلا:

- لا.. لن نسلمهم أنفسنا، والله لا أنزل في ذمة مشرك.

ثم رفع يديه إلى السماء داعيا في تضرع قائلا:

- اللهم أخبر عنا نبيك.

وأمام رفض المجموعة للاستسلام، أمر قائدهم الرماة بأن يبدؤوا عملهم بإشارة من يده.

وفي لحظة..انطلقت عشرات الأسهم في اتجاه الجبل لتصيب عاصم بن ثابت، فيسقط شهيدا مع سبعة من إخوانه.

وهنا أشار لهم قائدهم بالتوقف.

ثم أعاد نداءه مرة أخرى للثلاثة الباقين..

خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وصحابي ثالث.

ولم يجد الثلاثة بدا من أن يستسلموا وينزلوا من على الجبل..

وما إن نزلوا.. حتى اتجهت مجموعة من الرماة إلى خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة ليربطوهما بالحبال، وهنا صرخ فيهم ثالثهم وهو يهاجمهم في غضب وهو يقول:

- أهذا هو أمانكم يا قتلة.

ولم يستطع بعدها الصحابي أن يكمل جملة أخرى، فقد استقر سهم في قلبه ليرديه قتيلا، ويصبح الشهيد الثامن مع عاصم بن ثابت وإخوانه.

ونظر خبيب وزيد إلى أخيهما وقد سكن جسده على الأرض، والتفتوا إلى القتلة وقد احمر وجههما من شدة الغيظ، بينما هتف قائدهم في برود ووقاحة قائلا:

- لا تغضبا يا رفاق، فدوركما آت لا محالة.

وتابع والغدر يطل من عينيه قائلا:

- ولكن ليس هنا..

بل في مكة.

* * *

«هذا صيدنا لكم، لم نستطع أن نوقع في شباكنا أكثر من ذلك».

هتف بها قائد المجموعة الغادرة أمام عدد من زعماء قريش في مكة، وهم يعرضون «خبيب بن عدي» و«زيد بن الدثنة» موثقين أمامهم للبيع.

وكان من بين هؤلاء الزعماء عقبة بن الحارث، والذي قتل أبوه الحارث بن عمرو في بدر على يد خبيب.

وهنا هتف عقبة بن الحارث وهو ينظر إلى خبيب، وقد ملأ الحقد كيانه كله وهو يقول:

- أما هذا الصيد.. فهو لي بما تريدون من مال، وأما الآخر فليكافئه إخواني على شجاعته في بدر!

وأمر أحدهم بزيد بن الدثنة لينهالوا عليه ضربا وتعذيبا بوحشية وهمجية لا يتصورها عقل، حتى لقي ربه شهيدا.

وأما خبيب بن عدي فلقد سجنه عقبة بن الحارث في بيته حتى ينتهى شهر محرم الذي يحرم فيه القتال ، وإلى أن يأتي ذلك اليوم، كان عقبة يتفق مع قريش على يوم مشهود، يدعى فيه الآلاف من أهل مكة ليشاهدوا انتقام الحارث لأبيه من قاتله، وليملي عينيه من دمائه وينشرح صدره بصرخاته.

وفى منزل الحارث..

حبسه عقبة في حجرة مقيدا بالسلاسل، وعين عليه امرأة تسمى (ماوية) لتراقبه وتقدم له الطعام.

وفي يوم دخلت عليه ماوية لتقدم له شيئا يأكله ، وما إن دخلت حتى ذهلت مما رأت..

لقد رأت «خبيبا» في يده عنقودا من عنب يأكل منه، في وقت لم يكن في مكة كلها ثمرة عنب واحدة !!

ومما ضاعف من ذهولها.. هو من أين أتى خبيب بذلك العنقود وهو مكبل بالحديد في حجرته منفردا ليل نهار ؟!!

وما إن جاء سيدها عقبة، حتى حكت له ما حدث وهو لا يكاد يصدق.

كان هذا هوأول المواقف التي أذهلت عقبة.

إلا أن «خبيبا » كان لا يزال في جعبته الكثير.

وتمر الأيام وخبيب ثابت على إيمانه لا يتزعزع قيد أنملة، ينتظر يوم شهادته كمن ينتظر يوم زفافه..

يشتاق إليه لأنه يشتاق إلى لقاء الله .

وقبل أن يرحل شهر محرم بيوم، نادى خبيب على ماوية، ففتحت عليه الباب لتسأله عما يريد.

فقال لها خبيب في رفق:

- هل لك في أن تعطيني حديدة؟

قالت ماوية في دهشة متسائلة:

- حديدة..ولم ؟!

قال خبيب وهو يبتسم في هدوء زاد من دهشتها :

- لأقص الأظافر وأهذب الشارب وأحلق الإبط، لألقى ربي وأنا في خير حال.

سكتت ماوية هنيهة، وقد تملكتها مشاعر مختلطة من الإعجاب والدهشة، وقالت في صوت خفيض وقد بدا عليها التفكير والتأمل:

- لا بأس..سآتيك بما تريده..حالا.

ولم تمض دقائق حتى أتت ماوية وبيدها ما طلبه خبيب، ثم نظرت إليه نظرة تساؤل لثوان، ثم تركته، وربما شغلها تفكيرها ساعتها أن تحكم غلق الباب.

وربما لم تجد داعيا لأن تغلقه من الأساس.

وما إن بدأ خبيب يهذب نفسه، حتى وجد الباب يفتح وقد بدا من خلفه طفل صغير جرى إليه وهو يبتسم في براءة لا تعرف الغدر، و لم تسمع يوما كلمة الخيانة.

إلا أن حب خبيب ينال من الصغير، فيقع في قلبه، ليجلس مع خبيب يداعبه في حب.

وبينما هما في عالمها الجميل،حتى دوت صرخة رجت المكان..و

«ماذا ستفعل بابني؟ أتوسل إليك أن تتركه ».

صرخت بها ماوية بعد أن دخلت فوجدت الحديدة في يد خبيب وهو يجلس طفلها الصغير على قدميه، فظنت أنه سيهم بإيذاء ابنها.

انتبه خبيب فجأة ونظر إليها وقال لها وهو يبتسم:

- أتخافين أن أقتله يا ماوية؟

وقبل أن تنطق ماوية بكلمة، وقد بدا عليها أن فمها قد تلجم، قال خبيب مطمئنا لها:

- يا ماوية..ما كان لي أن أقتله وأنا من أصحاب محمد ﷺ.

ونظر إلى ابنها في رفق وهو يقول له:

- يا بني..اذهب إلى أمك.

التقطت ماوية يد ولدها في هدوء ورفعته إلى حضنها، وهي تنظر إلى خبيب بدهشة أكبر وحيرة أشد وتفكير أعمق.

ولكن لم يطل بماوية التفكير هذه المرة..

لقد أسلمت ماوية..

نعم أسلمت..لكنها أخفت إسلامها خوفا من سيدها عقبة بن الحارث .

عظيم يا خبيب..

نجحت في أن تقنع من يقف على حراستك بالإسلام دون خطب رنانة وكلمات بليغة.

فقط بأخلاق الإسلام وتعاليم الرسول ﷺ.

لقد أسلمت ماوية بعدما رأت كيف أن من غدر به، لا يغدر بطفل وهو رهينة له في محبسه، في فرصة نادرة للهروب من حكم مؤكد عليه بالإعدام.

أسلمت ماوية.. بعد أن تأكدت أن الفارق كبير بين أخلاق سيدها عقبة بن الحارث، وأخلاق أصحاب الرسول ﷺ من أمثال خبيب بن عدي.

أسلمت ماوية.. لأنها رأت حب الله والرسول ﷺ في عيون خبيب، بينما رأت الدنيا بكل طمعها وغدرها في عيون سيدها عقبة.

أسلمت مأوية..

وبكت وهى ترى «خبيبا» في اليوم التالي، وقد أخذته عصبة من الرجال إلى التنعيم، لينفذ فيه حكم ظالم، شاهد على انحطاط خلق وفساد نفس..

وسفالة بشر.

* * *

المكان: منطقة التنعيم بالجزيرة العربية..خارج مكة.

الزمان: السنة الرابعة للهجرة.

الحدث: إعدام الصحابي خبيب بن عدي.

آلاف من أزواج العيون المترقبة، تنظر إلى خبيب بن عدي الذي يمسك به اثنان من الرجال الأشداء وهو يمشي أمامهما في ثبات مذهل، وكأنه ذاهب إلى تتويج بطولي..

يوقفه الرجلان أمام عدد من زعماء قريش الذين جاؤوا ليحققوا انتصارا وهميا، يشفى شيئا من مرضهم النفسى بانتقامهم من شاب أعزل، كل ما فعله أنه انتصر عليهم بشرف في معركة حربية كانوا هم فيها أضعاف عدد المسلمين.

ووقف خبيب لتقع عيناه على عيني أبي سفيان وعقبة بن الحارث، ليقول لهما في ثبات:

- هل تسمحا لي بصلاة ركعتين ؟

وأشار إليه أبو سفيان بالموافقة في حين ابتسم عقبة ابتسامة استهزاء، وظل ينظر إليه وهو يصلي قائلا في صوت خفيض:

- لن تنفعك اليوم صلاة محمد يا خبيب.

وينتهي خبيب من صلاته وينظر إلى زعماء قريش في تحد قائلا :

- كنت أتمنى لوأزددت صلاة، لولا أن تحسبوا أن بي جزعا من الموت.

ثم رفع يديه إلى السماء ليدعو الله بكل ما تملكه نفسه من خشوع قائلا:

- اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا.

قالها خبيب بكل قوة وصدق، أدخلت الرعب في كل الجمهور الواقف، حتى إنهم انبطحوا على الأرض خوفا منهم أن تصيبهم دعوة خبيب.

ونظر أبو سفيان إلى المشهد فأصابه الغيظ وخشي من انتصار آخر يحققه عليهم خبيب، فأشار إلى الرجلين أن يأخذوه.

وعلى الفور يجذبه الرجلان بكل قسوة وعنف ليرفعوه على صليب من النخل، ويقيدوه في أول حادثة قتل يقوم بها العرب على الصليب.

ويأمر أبو سفيان الرماة أن يبدؤوا بإطلاق بعض السهام في غير مقتل، فتنطلق السهام لتنهش في لحم خبيب..

ويصرخ خبيب صرخة مكتومة شجعت أبا سفيان على أن يقترب منه، ليقول له في شماتة:

- يا خبيب.. أتحب أن محمدا مكانك، وأنت سليم معافى في أهلك ؟

ويتحامل خبيب على آلامه ليطلق عليه برده سهما أشد من كل السهام التي وجهت إليه، قائلا في تحد وإصرار:

- والله ما أحب أني في أهلي وولدي، معي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله ﷺ بشوكة!!

وصل الرد إلى أبي سفيان كمطرقة على رأسه، جعلته يطأطئها لثوان وقد تملكه تفكير عميق، ثم قال بصوت خفيض محدثا نفسه:

- والله ما رأيت أحدا يحب أحدا، كما يحب أصحاب محمد محمدا.

ولم يجد أبو سفيان بدا من أن ينهي هذا المشهد الذي يرى محمدا فيه ينتصر في كل لحظة في خلفية الأحداث.

وهنا أشار إلى عقبة بن الحارث حسب الاتفاق، ليلقي بسهمه الأخير.

وبكل غل الدنيا، شد عقبة نبله وصوب على القلب الطاهر ليغرس فيه سهم الغدر والخيانة..وتنطلق صرخة احتضنتها السماء بالحب والرحمة.

كانت الطيور الجارحة التي تحوم حول المكان قد أخذت أوامرها من ربها بألا تقترب من جثمان الشهيد..

فطعامها ليس من أمثال خبيب..

وعليها أن تنتظر حتى تجد ضالتها في جيفة من تآمروا على قتل فتى أعزل.

انصرفت الطيور تاركة المكان حزينة..

وتسمر الناس أمام المشهد العجيب لثوان، وقد ثبتت عيونهم على جسد خبيب، وقد تدلت رأسه من الصليب.

وبصعوبة بالغة، جر الناس أقدامهم إلى منازلهم في صمت مهيب، لا يسمع فيه إلا دقات أقدام،

شغلت رؤوس أصحابها بأفكار لا أول لها من آخر.

وعلى بعد مئات الكيلومترات..في المدينة.

يترائى أمام رسول الله ﷺ، جسد أحد أصحابه معلقا..فيرسل الرسول ﷺ المقداد بن عمرو والزبير بن العوام ليعرفا ما حدث..ويصل الاثنان ليفاجآ بما حدث لخبيب.

وعلى بقعة طاهرة من أرض الله، تتساقط عليها دموع صاحبيه، دفن خبيب بن عدي في مكان لا يعرفه أحد حتى الآن.

ربما شاء الله ذلك ليجعله سرا تكتمل به أسطورة بطل من صحابة رسول الله ﷺ..

اسمه.. خبيب بن عدي.

* * *

دروس وتحليل

١ - عندما نقدم على فعل الخير، لابد أن نخلص النية لله، فربما يتبع فعل الخير أذى بصورة من الصور (وفد الصحابة يهاجم من قبل الرماة رغم ذهابهم لمهمة تعليمهم القرآن وتعاليم الإسلام).

ربما يقدم الواحد منا على فعل خير، فيفاجأ بأنه قد أصيب بأذى بعد هذا الفعل مباشرة، ويسبب ذلك نوعا من الصدمة والذهول وتبدأ بعدها الاجتهادات في تفسير ما حدث، وربما يتسبب ذلك بعدها تحت تأثير الإحباط، في أن يتردد الشخص كثيرا قبل إسداء الخير للآخرين.

والحقيقة أن هذا الأمر قد يحدث كنوع من التدريب على إخلاص العمل لله..

فالشخص الذي يقدم على عمل خير، عاقدا العزم على أن يكون عمله خالصا لله، عليه ألا ينتظر الشكر من الناس، وعندما يتعرض للأذى من جراء إقدامه على فعل الخير، سيفهم أن هذا اختبار من الله على قوة إخلاصه ومدى قدرته على الثبات عليه.

إن المخلصين في أعمالهم الساعين لإرضاء الله، من الممكن أن يتعرضوا للأذى، وليس بالضرورة أن تكون هذه قاعدة، ولكننا نذكرها لأخذ الحيطة وعدم التراجع عن فعل الخير، وعلى هؤلاء أن يفهموا أن هذا جزء من طبيعة الأمور، وعليهم أن يثبتوا ويستمروا، راجين الأجر والثواب من الله عز وجل.

إن انتظار الشكر من الناس، غالبا ما يجعل فاعل الخير فريسة للإحباط، وإخلاص النية لله يهدئ النفس، ويوثق علاقتها بخالقها، ويشعرها بالرضا في كل الأحوال.

٢ - الله لا يتخلى عن المظلومين والمجاهدين في سبيله، مهما اشتد الظلم عليهم (ماوية تجد عنقودا من العنب في يد خبيب بن عدي).

ما دام عملك في سبيل الله، فلن يتخلى عنك الله مهما وقع عليك من ظلم، فسيثبتك ويشد من أزرك بمدد من عنده ، وسييسر لك الأسباب والمواقف التى ترفع روحك المعنوية، وسيرعى بيتك وأولادك في حياتك ومن بعدك، طالما كنت صادقا معه ومع نفسك.

٣- الأخلاق دائما هى السلاح الفعال وحجر الزاوية لاقتناع غير المسلمين والمسلمين بالإسلام (إسلام ماوية بعد تصرف خبيب بن عدي مع طفلها).

مهما كانت درجة حرص المسلم على العبادة واجتهاده فيها، سواء في صلاة أو صيام أو قيام أو حفظ قرآن، فإن تقييم الناس النهائي له، سيكون من خلال سلوكه وأخلاقه، لا من خلال عباداته.

هذه هي الحقيقة..

المساجد تكتظ بالمسلمين في رمضان، والبكاء يكون على أشده في القيام، ويرتفع صوت الميكروفونات في المساجد في جوف الليل في العشر الأواخر منه في صلاة التهجد، ويشد الكثير

الرحال إلى المساجد للخلوة مع الله، وتنشط رحلات العمرة بكثافة ليس لها مثيل في باقي شهور السنة.

كل هذا جميل.

لكن غير الجميل.. هو ما يحدث بعد شهر رمضان..

بعده مباشرة.. وفي أول أيام عيد الفطر المبارك.

انحدار في المستوى الأخلاقي بصورة مذهلة، تجعل من يشاهد المشهد دون أن يعرف تفسيره، يصاب بالذهول مما يحدث!!

والنتيجة النهائية: أننا تعودنا أن نفصل العبادة عن الأخلاق، وقصرنا الإسلام على المسجد والمصحف والصيام والذهاب للعمرة.. فلم ننجح أن نقنع أحدا بالإسلام وقيمته وقدرته على تغيير الناس وإسعاد المجتمع، وازدادت نظرة غير المسلمين للإسلام سوءا، وكيف لا.. ونحن نتشنج من أجل خلاف فقهي بسيط في أمر من أمور الصلاة، وتعلوأصواتنا في المساجد وربما يصل الأمر إلى مشادة وخلاف وقطيعة، بينما جوهر الإسلام ننظر إليه من بعيد، ونحن نهز رؤوسنا دون عناية.

لن يعجب الآخرون بإسلامنا ونحن مصرون على سلوكياتنا السيئة، وفهمنا الغريب الذي قبع بنا في مستنقعات التخلف، ورمانا إلى الخلف مئات السنين.

٤- الحق له قوة جبارة ترهب الطغاة والظالمين مهما وصل تجبرهم؛ لأن قوة الحق مستمدة من الله عز وجل (خبيب بن عدي يدعو على قريش فيخفضون رؤوسهم خوفا من أن تصيبهم الدعوات بسوء).

قوة الحق مستمدة من قوة الله عز وجل، فهوالحق؛ ولذا.. فالظالم دائما يكون في حالة قلق ممن ظلمه؛ لأنه يدرك في أعماق نفسه أن للحق قوة خفية، إذا تمكنت فلن يستطيع أن يوقفها، ومن أجل أن يزيل هذا القلق، فإنه يحاول باستمرار أن يزيد من تحصيناته وإجراءاته، حتى يضعف موقف من ظلمه بكل قوة، ورغم كل ذلك، فإن القلق يظل مختبئا في ركن من أركان جسده، يستطيع أن يغزه بسكينه بين الحين والآخر.

إن الحق سينتصر يوما.. هذه حقيقة ثابتة لم تسقط على طول التاريخ ولو لمرة واحدة، وليست مشكلتنا أن ينتصر الحق ونحن أحياء، فهذه ليست قضيتنا التي سيحاسبنا الله عليها، إنما ما سيحاسبنا الله عليه هو.. هل كنا مع الحق أم لا ؟

٥- كل إنسان لابد أن يظلم في حياته حتما، فاحرص أن تعلم غيرك شيئا (خبيب بن عدى يبعث رسائل الصمود و حب الرسول ﷺ والرغبة في التضحية والفداء من أجل العقيدة، وهو على منصة الإعدام).

لا يمكن أن تمر حياة إنسان مهما كان، وفي أي مرحلة من مراحل عمره، دون أن يقع عليه ظلم

ما، ومن الممكن أن ينال الإنسان ثوابا عظيما، إذا ما حرص على أن يعطى لغيره قيمة نبيلة وهو مظلوم، مثلا.. قيمة الثبات على المبدأ، أوالصبر دون جزع، أوالإصرار على النجاح والمحاولة مرات ومرات، أوالتسامح عند المقدرة.

إن المظلوم الذي يحاول أن يعلم الناس شيئا، يتحول إلى رمز وبطل وقدوة، جديرة بأن يحتذي بها.

٦- الثبات على المبدأ يجعلك شخصا جديرا بالاحترام أمام نفسك وأمام أصدقائك وأمام أولادك (أبو سفيان يجد نفسه مضطرا لاحترام خبيب رغم ضعف موقفه، نظرا لثباته على الحق ودفاعه عن مبادئه بمنتهى القوة والشجاعة).

الحياة عبارة عن سلسلة من الصراعات بين الخير والشر، والضغوط التى يتعرض لها أي إنسان مهما كان صغيرا أو كبيرا، سواء كان طالبا في مدرسته أو موظفا في عمله، أو مسئولا في منصب كبير أو صغير، فهذه الصراعات والضغوط لا تنتهى أبدا، ودائما يقف الإنسان بين أن يصر على مبدأ - يعلم تماما أنه صحيح ويدافع عن قيمة نبيلة -وبين أن يستسلم للضغوط التي من الممكن أن تكون رهيبة في بعض الأحيان.

وخبيب يعلمنا أن الثبات على المبدأ يجعلك شخصا جديرا بالاحترام،حتى وإن خسرت بعض الشيء، فأبو سفيان رغم أنه سيقتله، إلا أنه لم يستطع أن يتمالك مشاعره أمام صموده على مبدئه، رغم ما يتعرض له من ضغوط.

وفي المقابل.. من السهل أن يقنع الإنسان نفسه بالاستسلام للضغوط في مقابل المصلحة، ولكنه في النهاية.. من الصعب أن يحترم نفسه.. فضلا عن احترام الناس.

* * *